مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

مختبر الحوار الخليجي
Gulf Dialogue Lab

أوراق ثقافية

أم كلثوم
ملهمة الحداثة الموسيقية

سيد محمود

أكتوبر – 2024

Photo Source: Wikipedia (2024)

مدخل:

بمرور هذا العام تتم أم كلثوم مئة عام على قرار احترافها الغناء والاستقرار في القاهرة بدلا من العيش في قريتها الصغيرة «طماي الزهايرة» قرب المنصورة في دلتا مصر، كما تصادف في فبراير من العام المقبل الذكرى الخمسين لرحيلها بعد أن ظلت تغني مدة تقارب خمسة وسبعين عاماً

وبين الميلاد والوفاة حدثت تغييرات كبيرة لم تكن قاصرة على حياة المطربة التي انتقلت بفضل عوامل عديدة من الفقر والعوز إلى مجد النجومية، فقد امتدت تلك التغييرات لتشمل المجتمع المصري كله بحيث عاش سيرة من تحولات أرخت أثرها على صوتها الإستثنائي

وبعد مرور قرن كامل على حضورها في الحياة العامة ظل صوتها حياً وفاعلاً في نسيج الحياة اليومية في مصر والعالم العربي، ويصنع علاقات الحب ويعيد صياغتها، ويديرها بكفاءة، كما يؤنس وحدة العشاق العابرين، ويقدم لهم عزاءات تساعد على تخطي ما يحيط بهم من أزمات

وكل هذا يؤكد أن صوت أم كلثوم كان أحد أهم روافد التغيير، فلم تكن مجرد مطربة، وإنما كانت رائداً ورافداً ثقافياً واجتماعياً بالمعنى العام للكلمة، وفق ما تصفها فرجينيا دانيلسون في كتابها صوت مصر أم كلثوم والأغنية العربية والمجتمع المصري في القرن العشرين (المركز

بعد مرور قرن كامل على حضورها في الحياة العامة ظل صوتها حياً وفاعلاً في نسيج الحياة اليومية في مصر والعالم العربي، ويصنع علاقات الحب ويعيد صياغتها، ويديرها بكفاءة، كما يؤنس وحدة العشاق العابرين، ويقدم لهم عزاءات تساعد على تخطي ما يحيط بهم من أزمات.

Photo Source: x.com (2019)

القومي للترجمة ترجمة: عادل هلال عناني، القاهرة 2015، ص 40). وعلى كثرة ما كتب حول صوتها ودورها في المجتمع المصري، يبقى من المثير النظر إلى دورها المهم في تغيير وكسر الصورة النمطية عن النساء في المجتمعات الشرقية في أوائل القرن العشرين كسيدات خانعات مذعنات صامتات محجبات.

ومن المهم كذلك الإلتفات إلى دورها الفاعل في تغيير الصورة النمطية التي كانت شائعة عن العاملات في مجال الفن بصورة عامة، وعن المغنيات داخل الصالات والمسارح الصغيرة بوجه خاص، وبالتالي أصبح من الضروري التفكير في أم كلثوم كرائدة من رائدات الحركات النسوية في عالمنا العربي

النظرة للفنانات:

كان عالم الفن إلى تأريخ استقراره النهائي في القاهرة عام 1924 عالماً ذكورياً، وكان ينظر إلى النساء العاملات في الفن نظرة متدنية، وكانت المهنة ذاتها مرادفة للفجور واعتبار انخراط النساء في صناعة الغناء عملاً منبوذاً من الناحية الاجتماعية، بسبب شيوع نوع من الأغنيات التي كانت تقدم لمرتادي الملاهي الليلية والمسارح بعد الحرب العالمية الأولى، بقصد الترويح عن الناس وتسلية الأجانب وجمهور الصالات (رفاييل كورماك: منتصف الليل في القاهرة «نجمات مصر في العشرينيات الصاخبة»، ترجمة: علاء الدين محمود، ص37)، وتميز هذا النوع من الأغنيات بالألحان الخفيفة والكلمات الركيكة وكثرة الأداء السوقي المبتذل الذي عزز من الإساءة للفن بوجه عام

كان صوت أم كلثوم أحد أهم روافد التغيير، فلم تكن مجرد مطربة، وإنما كانت رائداً ورافداً ثقافياً واجتماعياً بالمعنى العام للكلمة.

ويشير الأكاديمي البريطاني أ. ج. راسي في كتابه «صناعة الموسيقى والغناء في العالم العربي: الثقافة وفن الطرب» إلى ثلاث ظواهر سلبية الأثر على المناخ المرافق لصعود أم كلثوم، منها: التزمُّت الذي لا ينظر إلى الفن والغناء بقبول وارتياح دون أن يمنع ذلك من انجذاب فئات اجتماعية إليهما؛ ويرى الناقد الفلسطيني فيصل درّاج أنه بالإضافة إلى التزمُّت، فإن النظام الأبوي البطريركي في عالمنا العربي لا يرى مهنة الغناء محببة ويضع أمامها عوائق كثيرة، ويضرب مثلاً بالشرط الذي وضعه عبده الحامولي (1841-1901) أمام زوجته المطربة «ألمظ» بعد زواجهما، حيث طلب إليها أن تعتزل الغناء وتكرس نفسها لحياتها الجديدة، ولم يكن موقف أم كلثوم مختلفاً في بيئتها التقليدية التي كانت ترفض احتراف النساء لمهنة الغناء (محمد الحجيري: بوب آرت أم كلثوم، دار الجمل، بيروت، ص 2021).

أسباب ازدراء الموسيقى:

كما أساء ارتباط الغناء بتعاطي المخدرات أو الخمور أو القمار، ووجود الأجانب في أماكن الغناء خلال فترة الحرب العالمية الأولى وما بعدها، إلى مشاركة النساء في الغناء، وصادف ذلك اقتحام

Photo Source: SkyNews (2020)

أم كلثوم لمجال الفن، وهو ما أكسب الموقف مزيدا من التردي والتعقيد، ولعل ذلك هو ما دعا أم كلثوم في بداياتها إلى الغناء مرتدية ملابس صبي، ويمكن استذكار حانات الغناء والرقص بحضور الجنود الإنجليز في فيلم «زقاق المدق» عن رواية نجيب محفوظ

من جهة أخرى، فقد حاول والد أم كلثوم الذي كان مرافقاً لها حتى ذلك الحين، مواجهة مخاوفه الأخلاقية، إلا أن تلك المخاوف قد ازدادت حدتها بسبب تدني مكانة المطربين والمطربات بين أبناء مصر بوجه عام، وبسبب تجاربه في محاولة الحد من تلازم الحفلات الموسيقية مع سلوكيات بدت بالنسبة لوعيها «منحرفة»، فالمغني أو المطرب في السياق العام كان أشبه بالمهرّج، وكان غناؤه أشبه بغناء السَّوقة، ويعلل محمد المويلحي ذلك بقوله: «إن المغنيين نشؤوا في أمة يرى السواد الأعظم فيها أن صناعة الغناء من أسافل الصناعات، وأن في ممارستها حطة ونقصاً، فصغرت لذلك نفوس المغنيين، وهانت عليهم صناعتهم. (أحمد يوسف علي، أم كلثوم الشعر والغناء، مركز أبو ظبي للغة العربية، 2023، ص49)

ولم تقتصر هذه النظرة المتدنية للفن على الشخص العادي، بل امتدت إلى الحكومة نفسها، التي رأت أن تطوير ورعاية الفن مهمة وزارة الأشغال المعنية برصف الطرق، ومد شبكات المياه، وبناء الجسور والترَع. (محمود عوض: أم كلثوم التي لا يعرفها أحد، كتاب اليوم، دون تاريخ، ص47)

بدايات صناعة الموسيقى:

في ظل هذه الأجواء استطاعت أم كلثوم بفضل عوامل كثيرة مقاومة المناخ السائد في عالم الغناء، وذلك على الرغم من انخراطها في تقديم أغنيات ضحلة المعاني في بداية عملها، إلا أنها تجاوزت تلك المرحلة بسرعة، واعتلت المسرح بما لديها من أفكار عن الأصالة، فضلا عن الخلفية

المشتركة بينها وبين المشايخ، فغدت واحدة من التعبيرات الفنية الراغبة في تأكيد أصالة المشروع الحضاري العربي في مواجهة من ينكرون قدرته على التغيير والتحديث

وجرى ذلك في وقت كانت صناعة الموسيقى والغناء تشهد تحديات عديدة على مستوى الصناعة بعد أن ظهرت تقنيات جديدة ومنها الفونوغراف، ثم صناعة

Photo Source: facebook (2019)

السينما والأسطوانة الحجرية، والتي وسّعت من دوائر الاستقبال والتلقي، وأحدثت ثورة بالمفهوم الاجتماعي، إذ لم يعد الاستماع حكراً على جمهور الحفلات وحده، وإنما امتد ليشمل فئات أخرى محرومة من تلك الفرص الترويحية

كما ازدهر المسرح الغنائي، ونجحت عمليات تمصير النصوص المسرحية، وأدى هذا الازدهار إلى زيادة الطلب على الموسيقيين والمطربين الذين يقدمون عروضاً حية كفواصل بين المشاهد، أو تأدية فقرات غنائية أبرزت مواهب استثنائية لملحنين ومطربين بحجم سيد درويش، ثم محمد عبد الوهاب، وحدث تحول من غناء المشايخ إلى غناء المحترفين، كما تطورت الأغنية ووصلت إلى القالب الخفيف المسمى «الطقطوقة» بعد قالب الدور.

“

استطاعت أم كلثوم مقاومة المناخ السائد في عالم الغناء، واعتلت المسرح بما لديها من أفكار عن الأصالة، فغدت واحدة من التعبيرات الفنية الراغبة في تأكيد أصالة المشروع الحضاري العربي في مواجهة من ينكرون قدرته على التغيير والتحديث.

Photo Source: filfan (2020)

مظاهر التحول في المجتمع المصري:

وعلى الصعيد الاجتماعي، شهد المجتمع المصري جملة من التفاعلات بين نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كشفت الانشغال بفكرة التحديث ذاتها، وهي تحولات تشير في عمل الكثير من المؤرخين إلى فترة توصف بـ»عصر النهضة»، وساعد المشهد التعددي الذي عرفته القاهرة وهي تواجه تحديات العلاقة مع الغرب بعد الاحتلال الإنجليزي، على إعادة ترتيب المشهد العام، فقد تكونت نخبة اجتماعية جديدة تمثل طبقة كبار ملاك الأراضي، وتكونت نخبة ثقافية استفادت من إيفادها في بعثات محمد علي باشا وأنجاله، وتحولت إلى طبقة ترغب في التعبير عن حضورها، وتسعى إلى خلق ما يسمى اليوم بالمجال العام، وظهرت الصحافة والمجلات، ودارت نقاشات موسعة بين رؤيتين أحداهما ترغب في تقليد الغرب، والأخرى تصر على مقاومة وجوده كمحتل

وفي قلب هذا المشهد الساخن، تواجد عدد كبير من الأجانب في مصر ممن وفدوا إليها آملين في العمل والإستثمار والانخراط في مشروع الخديوي إسماعيل، لتصبح مصر قطعة من أوروبا، وأشاع هؤلاء مساحة من التفاعل الاجتماعي الحر لم تكن متاحة من قبل، وقد بدأت النخب الأرستقراطية التي كانت آخذة في النمو في السعي لتبني مشروع للتحديث على النمط الغربي، وميزت بين أهداف الاحتلال الإنجليزي، والأفكار التي تقود مشاريع التحديث بعد أن أصبح التقدم هاجساً رئيساً يشغل الجميع، وتحول إلى سؤال يتحمل أجوبة متعددة ومتضاربة أحياناً. (سيد محمود، صحيفة اندبندنت عربية، 2 سبتمبر 2024)

> كان صوت أم كلثوم أحد أهم روافد التغيير، فلم تكن مجرد مطربة، وإنما كانت رائداً ورافداً ثقافياً واجتماعياً بالمعنى العام للكلمة.

Photo Source: arrajol (2017)

وبينما يحصل الأجانب والمغتربون على فرص أفضل للعيش، وينعمون بوظائف مريحة وحياة مدللة، فإن غالبية السكان الأصليين عانت شظف العيش، وكافحت مع عالم الرفاهية، وكانت تقاوم الغرق في ذلك العالم السفلي الناتج عن ازدهار حي الأزبكية الذي تحول إلى فضاء درامي يعج بالصخب والعنف، وفضاء مفتوح لحياة ليلية ماجنة، لكن أم كلثوم أصرت على تخطي هذا المشهد وفرض شروطها عليه، وصنعت ما يسميه أحمد يوسف علي دائرة «الوعي الكلثومي».

وتغذت تلك الدائرة من المناخ السياسي الذي خلقته ثورة 1919 وتحديات هوية أصبحت هاجساً رئيسياً، وساعدت الثورة على خلق اتجاه تجديدي في الموسيقى يعمل على تطعيم الموسيقى العربية بالموسيقى الأوروبية. (سهير عبد الفتاح: حياة وصوت أم كلثوم، مكتبة الأسرة، ص 20)

دور النخبة في ظهور أم كلثوم:

صحيح أن أم كلثوم كانت تهدف إلى الشهرة والثروة، وأغلب الظن أنها لم تكن تسعى لحمل لواء حركة من الحركات التي كانت مصر تموج بها، ومع ذلك فإن نجاحها جعل الجمهور يضفي عليها قيمة من نوع خاص، وكان إنجازها الأكبر فيما اختارته من كلمات، وما أدّته من ألحان في ضوء استجابتها للمتغيرات الاجتماعية والثقافية، فقد بدأت بأغنيات حققت نجاحاً كبيراً رغم خفتها مثل أغنية «الخلاعة والدلاعة مذهبي»، إلا أن عملها مع الشيخ أبو العلا محمد، أرشدها إلى الطريقة التي تصنع بها صورتها الجديدة.

كان صوت أم كلثوم أحد أهم روافد التغيير، فلم تكن مجرد مطربة، وإنما كانت رائداً ورافداً ثقافياً واجتماعياً بالمعنى العام للكلمة.

وساهمت رعاية أفراد من طبقة كبار الملاك لصوتها في توجيهها توجيهاً صحيحاً، فقد ساعدتها أسرة الشيخ مصطفى عبد الرازق وقدمت لها الرعاية والنصح، وبالمثل فعلت عائلة عز الدين يَكُن التي دعتها لإحياء أول حفل لها في القاهرة في رعايتها وإدارة خطواتها الأولى قبل أن تستقر في القاهرة نهائيا وتحصل على رعاية ثقافية من الشاعر أحمد رامي، غير أن الفضل في توجيه خطواتها وإرشادها يعودان لشيخ الأزهر الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي استضافت عائلته الكبيرة «عائلة عبد الرازق» حفلاً لها وهي ما زالت صغيرة، فتحمس لموهبتها حين كانت تؤدي قصائدها في إطار خط الإنشاد الديني

وبغض النظر عن التقلبات العملية بين تحريم الغناء والموسيقى وتحليلهما عبر العصور الإسلامية، فإن قناة سرية ظلت تربط بين الإنشاد الديني والغناء الدنيوي، وهذا الأمر كما يقول إلياس سحاب، بديهي، لأن كلا النوعين من الإنشاد، إنما يغرف مادته من معين حضاري واحد، بل

ساهمت رعاية أسرة شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق في توجيه أم كلثوم وقدمت لها الرعاية والنصح، وقد تحمس الشيخ لموهبتها حين كانت تؤدي قصائدها في إطار خط الإنشاد الديني. وبالمثل فعلت عائلة عز الدين يَكُن التي دعتها لإحياء أول حفل لها في القاهرة.

Photo Source: okaz (2020)

أن هناك الكثير من مساحات التداخل بين هذين النوعين من الإنشاد، كما أن الإنشاد الديني له فضل واضح في حفظ الثروة الغنائية العربية التاريخية، وحفظ الكثير من الثروة الإيقاعية العربية

ويشير الياس سحاب في كتابه الموسوعي حول سيرة أم كلثوم إلى أن شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق الذي وفّر لأم كلثوم بيئة اجتماعية وفنية قاهرية بعثت الاطمئنان والسكينة في نفس الفتاة الصغيرة وعائلتها الريفية البسيطة، ولفت نظرها إلى الطريق الثالث الذي ينبغي أن تسلكه بخلاف الانغماس في الغناء الترفيهي السائد، أو الانكفاء في دائرة الإنشاد الديني. (إلياس سحاب: سيرة أم كلثوم، بيروت 2003، ص75)

وفي غضون عامي -1924 1926 أصدرت أم كلثوم أربعة عشر تسجيلاً لأغنياتها على إسطوانة، وجميعها كانت ذات موضوعات متنوعة، الأمر الذي ساعدها على حسم المنافسة لصالحها مع مطربات عصرها، واتجهت اتجاهاً جديداً في أسلوب غنائها، وكونت أول تختٍ موسيقي لها يحمل اسمها (رتيبة الحفني، «أم كلثوم معجزة الغناء العربي»، دار الشروق القاهرة، ص 37) وتدريجياً تعززت صورتها كفنانة محترمة، ومن شبه المؤكد أنها ساهمت في بناء هذه الصورة بنفسها أيضاً.

Photo Source: Aljazeera (2018)

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

www.ar.grc.net

Gulf Research Center Jeddah (Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Foundation Geneva

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center Foundation Brussels

Avenue de
Cortenbergh 89
4th floor, 1000
Brussels
Belgium